

الركن الرابع: الإيمان بالرُّسُل

الرُّسُل جمع (رسول) بمعنى (مُرْسَل) وهو المبعوث بإبلاغ شيء ، والمراد هنا: مَنْ أُوحِيَ إليه من البشر بشرحٍ ، وأُمر بتبليغِهِ.^١

ستة عشر فائدة في النبوات

الغاية من إرسال الرسل

الرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ شرعه إليهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، لأن الناس مهما أوتوا من العلم والذكاء فلا يمكن أن تستقل عقولهم بتشريع عام مُوحَّد تنتظم به مصالح الأمة على أحسن ما يكون ، وذلك لأن عقول البشر قاصرة ، أما الله فهو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^٢.

فمن رحمة الله تعالى أن أرسل الرسل ليبلغوا الناس ما ينفعهم ، وبهذا كانوا حجة الله على الناس ، كما قال تعالى ﴿رَسُولًا مَبشُرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^٣.

^١ انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ .

^٢ سورة الملك: ١٤ .

^٣ سورة النساء: ١٦٥ .

بيان الفرق بين النبي والرسول

اختلف العلماء رحمهم الله في تعريف النبي على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن النبي هو الذي أوحى الله إليه بوحىٍ ، لينقله إلى المؤمنين الذين عنده ، كأنباء بني إسرائيل ، يأمرهم أقوامهم بما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى ﷺ .

وكذا اختلف العلماء في تعريف الرسول على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن الرسول هو الذي ينبئه الله ، ثم يأمره أن يبلغه رسالته إلى قوم كافرين كما حصل مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ويشهد لصحة هذا المعنى أن نوحا وُصف بالرسالة مع أنه قد تقدمه أنبياء على مدى عشرة قرون ، منهم شيث وإدريس عليهما السلام ، وما ذلك إلا لأنه بُعث لقوم كافرين أول ما وقع الشرك في الأرض ، بخلاف من تقدمه من الأنبياء ، فإنهم بُعثوا إلى قوم مؤمنين .

وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا^١.

أول الرسل نوح ، قال الله تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾^٢.

^١ انظر كتابه «النبوات» ، (٧١٤ ، ٧١٧) ، تحقيق د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة - الرياض.

وانظر للاستزادة في هذا الباب ما قاله الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» في تفسير قوله تعالى في سورة الحج ﴿وما أرسلنا

من قبلك من رسول ولا نبي﴾.

^٢ سورة النساء: ١٦٣ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.^١

فإن قيل: أليس آدم عليه السلام أول رسول لبني آدم؟

فالجواب ما قاله الإمام الشنقيطي رحمه الله:

الظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

الأول: أن آدم أُرسِلَ لزوجته وذريته في الجنة ، ونوح أول رسول أُرسِلَ في الأرض ، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (ويقول: ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ...). الحديث.

فقوله: (إلى أهل الأرض) لو لم يُرد به الاحتراز عن رسولٍ بُعثَ لغير أهل الأرض لكان ذلك الكلام حشوا ، بل يُفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثاني: أن آدم أُرسِلَ إلى ذريته وهم على الفطرة ، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه ، ونوح هو أول رسولٍ أُرسِلَ لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ الآية ، أي: على الدين الحنيف حتى كفر قوم نوح ، وقوله ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الآية. والله تعالى أعلم.^٢

^١ أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) ، ولفظ مسلم: فيأتون نوحا عليه السلام ، فيقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ... الحديث.

^٢ باختصار يسير من كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة البقرة: ٢٥٣ .

وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ ، قال تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^١.

ولم تخلُ أمة من رسول يعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحى إليه بشريعة من قبله ليجدها ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^٣ ، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾^٤.

ودعوة الرسل واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية ، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^٥.

والرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة ، وحباهم قدرة على القيام بأعبائها والصبر على مشاقها ، لاسيما أولو العزم منهم^٦ ، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾^٧.

والرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ - وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا

١ سورة الأحزاب: ٤٠ .

٢ سورة النحل: ٣٦ .

٣ سورة فاطر: ٢٤ .

٤ سورة المائدة: ٤٤ .

٥ سورة الأنبياء: ٢٥ .

٦ سيأتي التعريف بهم قريبا إن شاء الله.

٧ سورة الحج: ٧٥ .

شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^١ ، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾^٢.

والرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت والحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾^٣.

وقال النبي ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني.^٤

وقد وصف الله تعالى رسله بالعبودية له في سياق الثناء عليهم ، فقال تعالى في نوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^٥ ، وقال في محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^٦ ، وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم ﴿وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^٧ ، وقال في عيسى ابن مريم ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^٨.

١ سورة الأعراف: ١٨٨ .

٢ سورة الجن: ٢١-٢٢ .

٣ سورة الشعراء: ٧٩-٨١ .

٤ رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٥ سورة الإسراء: ٣ .

٦ سورة الفرقان: ١ .

٧ سورة ص: ٤٥ .

٨ سورة الزخرف: ٥٩ .

فالرسل عبید لله ، وعليه فلا يجوز أن يُصرف لهم شيء من العبادات ، لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا سجود ولا غيرها من العبادات ، بل المستحق لذلك هو الله وحده ، وهذا أمر مُجمع عليه في جميع الشرائع السماوية كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^١.

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض ، كما قال تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾^٢.

وأفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن ؛ في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى ، في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^٣ ، وفي قوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^٤.

ودلائل تفضيل هؤلاء الخمسة على غيرهم من الأنبياء وكونهم من أولي العزم واضحة ، فمحمد ﷺ قد تقدم الكلام عنه.

١ سورة الأنبياء: ٢٥ .

٢ سورة الإسراء: ٥٥ .

٣ سورة الأحزاب: ٧ .

٤ سورة الشورى: ١٣ ، وانظر تقرير ابن كثير لهذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾. سورة

الأحقاف ، الآية ٣٥ .

وأما نوح عليه السلام فإنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما طرأ الشرك عليهم ، وقد لبث نحو عشرة قرون يدعو إلى التوحيد.

وأما إبراهيم عليه السلام فإنه أبو الأنبياء كلهم ممن أتى بعده ، ولهذا أخبر تعالى عنه أنه جعل في ذريته النبوة والكتاب ، قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾^١.

كما أن إبراهيم عليه السلام كان صديقا ، وهي صيغة مبالغة من الصدق ، لشدة صدقه في معاملته مع ربه ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ ، وقوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ ، ودلائل صدقه في معاملته مع ربه عديدة ، منها رضاه بذبح ولده استجابةً لأمر ربه ، وصبره على الإلقاء في النار ، وصبره على مفارقة الأهل والوطن فرارا بدينه.^٢

وأما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فوجّه تفضيلهما على غيرهما من الأنبياء أن الله تعالى أرسلهما إلى أعظم أمة بعد أمة محمد عليه السلام ، وهي أمة بني إسرائيل ، وأنزل عليهما أفضل الكتب بعد القرآن وهما التوراة والإنجيل ، وقد لقيتا في سبيل تحمل أعباء الدعوة من المشاق الشيء العظيم مما هو مذكور في القرآن العظيم.^٣

^١ سورة الحديد: ٢٦ ، وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة العنكبوت.

^٢ انظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة مريم ، تفسير قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾.

^٣ انظر للفائدة ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في علة كون آدم عليه السلام ليس من أولي العزم في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة طه ، تفسير قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾.

وموسى أفضل من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ظاهر في كون الآيات التي آتاها الله تعالى لموسى أعظم من الآيات التي آتاها الله لعيسى ، قال ابن تيمية رحمه الله:

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعصي التي للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره ، وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول ، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم ، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا ، وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضاً فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح ، قال تعالى ﴿وَإِذ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^١ ، وقال تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾^٣.

١ سورة البقرة: ٥٥ - ٥٦ .

٢ سورة البقرة: ٧٣ .

٣ سورة البقرة: ٢٤٣ .

وأيضاً فموسى عليه الصلاة والسلام كان يُخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العَجَبُ الإبراء منه ، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول ، ففيه أمران عجيبان لا يُعرف لهما نظير.

وأيضاً فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده ، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح.

وأيضاً فموسى كان الله يُطعمهم على يده المَنَّ والسُلوى^١ مع كثرة بني إسرائيل ، ويفجر لهم بضره للبحر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم ، وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمرا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسى في عدوه من القُمَّل والضفادع^٢ والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح.^٣

^١ المَنَّ هو نبات الكمأ ، وهو نوع من الخضروات يخرج من الأرض أيام الأمطار بدون سقي ولا بذر ، وهي مما مَنَّ الله بها على عباده ، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: الكُمَّاءُ من المَنَّ ، وماؤها شفاءٌ للعين. رواه البخاري (٤٨٧٤) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه. وانظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير.

والسلوى طائر كالمُسَّمَانِي. قاله الأصبهاني في «المفردات في غريب القرآن».

^٢ انظر الكلام على هاتين الآيتين في الحاشية التالية.

^٣ أشار الله تعالى إلى آيات موسى التسع الدالة على نبوته في موضعين من القرآن:

الأول: في سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠١ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾.

والآية الثانية في سورة النمل ، الآية رقم ١٢ : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ومعنى الآيتين: ولقد آتينا موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صدق نبوته وهي: العصا واليد والسنون العجاف التي ابتلى بها الله آل فرعون ، ثم كشفها الله عنهم بسبب دعاء موسى لهم ، ونقص الثمرات عليهم والطوفان والجراد والثُمَّل والضفادع والدم الذي ابتلاهم الله به .
فأما آية العصا فمعروفة.

وأما آية اليد فهي إدخال موسى يده في جيبه فتخرج بيضاء كالثلج من غير بَرَص ولا مرض .
وأما الآيات السبع الباقية فهي التي ذكرها الله في القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والثُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرِّجْزُ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك إلفن كشفت عنا الرِّجْز لنؤمنن لك ولترسلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فاتقمنا منهم فأغرقتاهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ .
وتفسير الآيات المتقدمة كالتالي: ولقد ابتلينا فرعون وقومه بآيتين وهما القحط ونقص الثمار ، ليتذكروا ، ويتزجروا عن ضلالتهم ، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

فإذا جاء فرعون وقومه سنة فيها حُصِب وسعة رزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه ، وإن يُصِيبهم جُذْب وقحط يتطيروا أي يتشاءموا ، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومَن معه. فرد الله عليهم أن ما يصيبهم من الجذب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره ، وبسبب ذنوبهم وكفرهم ، ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك ، لانغمارهم في الجهل والضلال.

وقال قوم فرعون لموسى: أي آية ودلالة وحجة تأتينا بما لتصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، فما نحن لك بمصدقين بما .
فأوقع الله عليهم الرِّجْز ، وهو خمس من البلايا ، أولها الطوفان ، وهو سيل جارف أغرق الزروع والثمار ، وكذلك الجراد ، فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ، وأرسل عليهم الثُمَّل الذي يفسد الثمار ويقضي على الحيوان والنبات ، وأرسل عليهم الضفادع فملأت آيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم ، وأرسل عليهم الدم فصارت أنهارهم وآبارهم دماً ، ولم يجدوا ماء صالحاً للشرب .
هذه البلايا التي ابتلى الله بها بني إسرائيل هي آيات من آيات الله لا يقدر عليها غيره ، ودالات على أن موسى نبي من عند الله ، عصاه فرعون وقومه فابتلاهم الله بها .

انتهى كلامه رحمه الله.^١

وأفضل الرسل قاطبة هما الخليلين ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الله لم يتخذ خليلين إلا هما عليهما الصلاة والسلام.

وأفضل الخليلين هو محمد ﷺ ، فقد فضله الله على جميع الخلق أولهم وآخرهم ، الأنبياء وغيرهم ، فهو إمامهم وسيدهم ، كما قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)^٢.
كما اختصه الله بآيات تفوق تلك التي آتاها الله غيره من الأنبياء ، وآمن عليها أكثر ما آمن عليه البشر ، وأعظمها القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن آيات الأنبياء انتهت بموتهم ، أما القرآن فأية خالدة.

ولما نزل العذاب على فرعون وقومه فزعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما أوحى به إليك من رُفَع العذاب بالتوبة ، لمن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه لنصَدَّقَ بما جئت به ، وتبِع ما دعوت إليه ، ولنطلقنَّ معك بني إسرائيل ، فلا تمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا.

فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم إلى أجلٍ إذا هم ينقضون عهدهم التي عاهدوا عليها ربه وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم ، فانتقمنا منهم حين جاء الأجل المحدد لإهلاكهم ، وذلك بإحلال نعمتنا عليهم ، وهي إغراقهم في البحر ، بسبب تكذيبهم بالمعجزات التي ظهرت على يد موسى ، والدالة على نبوته.

ثم أورثنا بني إسرائيل - الذين كانوا يُسْتَدَلُّون لخدمة قوم فرعون - مشارق الأرض ومغاربها ، وهي بلاد الشام التي باركنا فيها ، بإخراج الزروع والثمار والأنهار ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع ، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور ويتخذونها عروشاً لملكهم.

^١ انظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «الجواب الصحيح» (١٧/٤ - ١٩).

^٢ رواه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن دلائل تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى جمع فيه ما تفرق في غيره من الأنبياء من الخصائص ، وهو الخُلة والكلام والنبوة والرسالة ، فأما الخلة - وهي أعلى درجات المحبة - فهو خليل الله ، والله خليله ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ﷺ : وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا.^١ وكذلك الكلام ؛ فقد كلمه الله يوم عُرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع موسى عليه الصلاة والسلام. وأما وصفه بالنبوة والرسالة فمعلوم من آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ، وقوله ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾. وهذه الصفات الأربع ، الخُلة والكلام والنبوة والرسالة ، لم تجتمع في نبي قط إلا في نبينا محمد ﷺ ، وهذا من دلائل تفضيله على سائر الأنبياء.

فائدة

كثيرا ما يقرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.^٢

فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبد رسولٍ ونبِيٍّ مَلِكٍ ، وأفضلية من كان عبدا رسولا على من كان ملكا نبيا

^١ رواه مسلم (٢٣٨٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

^٢ قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

الأنبياء والرسل ينقسمون إلى عبد رسول ونبي ملك ، والدليل على هذا التقسيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملكٌ ينزل ، فقال له جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلِقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلني إليك ربك ، أفملكنا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا؟

قال جبريل: تواضع لربك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ : بل عبدا رسولا.^١

قلت: والعبد الرسول أفضل من الملك النبي من وجهين:

الأول: أن الرسول يكون مبعوثا إلى قوم كافرين ، وأما النبي فيكون مبعوثا إلى قوم مؤمنين ، فمهمة الرسول أصعب فلهذا كان أفضل ، وقد تقدم معنا بيان الفرق بين النبي والرسول.

الوجه الثاني: أن من كان عبدا فإنه لا يتصرف فيما تحت ملكه إلا بإذن الله ، قال ﷺ : إنما أنا قاسم ، والله يعطي.^٢

وأما من كان ملكا فإنه يتصرف كما يشاء من غير إثم عليه.

فحال الأول أكمل من حال الثاني فيما يتعلق بالعبودية لله تعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله في مسألة انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول ونبي ملك:

العبد الرسول أكمل من النبي الملك ، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك.

وأما محمد ﷺ فهو عبد رسول ، كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام ، وهذا الصنف أفضل ، وأتباعهم أفضل.^١

^١ رواه أحمد (٧٧/١٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

^٢ رواه البخاري (٧١).

وقال أيضا: وقد خيّر الله سبحانه محمدا ﷺ بين أن يكون عبدا رسولا وبين أن يكون نبيا ملكا ،
فاختار أن يكون عبدا رسولا .

فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في قصة سليمان
الذي ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ
الرِّيحَ تَحْرِيحًا بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ * وَأَخْرَيْنَا مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *
هُدَا عَطَاؤُنَا فَامْتَنُوا أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

أي: أعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك .

فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرّم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه
ويختار من غير إثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يُعطي أحدا إلا بأمر ربه ، ولا يُعطي من يشاء ويحرم من يشاء... .

ثم قال: والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى
ومحمدا عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين
السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين ، الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله
عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء^٢ ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد
أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك^٣ .^٤

^١ النبوات (١٦٣/١) .

^٢ أي من الأبرار أصحاب اليمين .

^٣ أي من المقربين السابقين .

^٤ انظر «مجموع الفتاوى» (١١/١٨٠-١٨٢) .

وقال أيضا: والذي أوتيهِ ﷺ أعظم مما أوتيهِ سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يَرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته.^١
وقال أيضا: طاعة الجن لسليمان عليه السلام طاعة مَلَكية ، أما طاعة الجن لنبينا ﷺ فإنها طاعة نبوية.^٢

قلت: ومصدق ذلك في كتاب الله قوله تعالى عن الجن ﴿يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم* يا قومنا أحييوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجرکم من عذاب أليم﴾.^٣

وقال تعالى عنهم في سورة الجن ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا* يهدي إلى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ ... الآيات.

وقال أيضا ما محصَّله أن النبي ﷺ لم يستخلف من بعده أحدا من أهل بيته ولم يُخَلَّف لهم مالا ، وإن كان ذلك مباحا في حقه ﷺ ، فدل ذلك على حرصه على مقام العبودية والرسالة على مقام الملك والنبوة.^٤

والرسل غالبون دائما ، كما قال تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾^٥ قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

^١ انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/٨٩).

^٢ انظر كتاب «النبوات» ، ص ٨٤١ .

^٣ سورة الأحقاف: ٣٠ - ٣١ .

^٤ انظر «منهاج السنة النبوية» (٧/٤٦٧).

^٥ سورة المجادلة: ٢١ .

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رُسل الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لمن أُمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به ، وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾^١ أنه لن يقتل نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قِسْمٌ مقابلٌ للغلبة كما بينه تعالى في قوله ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب﴾^٢ الآية ، وقال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا﴾^٣ الآية ، وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفيًا باتاً في قوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾^٤.

وقال ابن تيمية ما محصّله أن ظهور الأنبياء على من خالفهم بالحجة والعلم من جنس المجاهد الذي هزم عدوه ، وظهور الأنبياء على من خالفهم بالسيف وغلبتهم عليهم من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.^٥

فائدة

سَرَدَ الحافظ ابن حجر رحمه الله جملة فوائد من غزوة أحد منها "أن عادة الرسل أن تُبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك: أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم^٦ ، ولم يتميز

^١ سورة الصافات: ١٧١ - ١٧٣ .

^٢ سورة النساء: ٧٤ .

^٣ سورة غافر: ٥١ .

^٤ سورة آل عمران: ١٦٠ .

^٥ انظر «أضواء البيان».

^٦ انظر «النبوات» ، ص ٢٠٩ .

^٧ يعني من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب".^١

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالرسول

الإيمان بالرسول يتضمن سبعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم بينهم قاسم مشترك ، وهو الإسلام بمعناه العام ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو أفراد الله بالعبادة وترك عبادة من سواه كائنا من كان) ، قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^٢.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الاتفاق في أصل الدين بين الأنبياء في قوله: والأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.^٣

ففي هذا الحديث شبه النبي ﷺ الأنبياء بالإخوة من العَلَّاتِ ، وهن الأمهات الذين لهم زوج واحد ، فالأمهات هن الشرائع ، والأب واحد وهو الإسلام بمعناه العام الذي تقدم آنفا ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو أفراد الله بالعبادة).

فبناء على هذه القاعدة فالأنبياء جميعهم من آدم إلى محمد مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى كلهم مشتركون مع الدين الإسلامي الذي جاء به محمد في التمسك بالإسلام بمعناه العام ، ليس بينهم فرق إذا نظرنا إليهم من هذا الجانب ، في حين أن لكل أمة من الأمم التي أُرسِل إليها الأنبياء شريعة ومنهاجا غير التي مع الأمة الأخرى ، كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾.

^١ باختصار يسير من «فتح الباري» ، كتاب المغازي ، تحت قوله: (باب غزوة أحد).

^٢ سورة الأنبياء: ٢٥.

^٣ تقدم تخريجه.

أي: فقد جعلنا لكل أمة شريعة وطريقة يعملون بها ، وهذا من حكمة الله تعالى في شرعه ، حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم.

الثاني: الإيمان بهم جميعاً من غير تفریق بينهم ، وضد هذا الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر ولو كان نبيا واحدا ، قال تعالى في وجوب الإيمان بجميع الأنبياء ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرأ من بعض ونتولى بعضاً ، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرت بغيره من الأنبياء ، بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه ، بُعثوا بالحق والهدى. انتهى.

قلت: ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفراً أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بُعث بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

من صدّق محمداً فقد صدّق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذّبه فقد كذّب كل نبي ، ومن عصاه^١ فقد عصى كل نبي ، قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً*

^١ أي عصياناً كلياً.

أولئك هم الكافرون حقا^١ ، وقال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾^٢.

ومن كذب هؤلاء تكذيبا بجنس الرسالة فقد صرح بأنه يكذب الجميع ، ولهذا يقول تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ ، ولم يرسل إليهم قبل نوح أحدا ، وقال تعالى ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾^٣.

قلت: ونظيره قول الله تعالى ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ ، وقوله ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع المرسلين ، ومن كذب نذيرا واحدا فقد كذب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون «لا إله إلا الله» كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾^٤ ، وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من

^١ سورة النساء: ١٥٠ - ١٥١ .

^٢ سورة البقرة: ٨٥ .

^٣ سورة الفرقان: ٣٧ .

^٤ قاله ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٨٥/١٩).

^٥ سورة النحل: ٣٦ .

قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون^١ وقوله تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾^٢.
وأوضح تعالى أن من كذَّب بعضهم فقد كذَّب جميعهم في قوله تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا﴾ الآية^٣ ، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾^٤ ، وقوله ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾^٥ ، وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾^٦ الآية. انتهى كلامه رحمه الله.^٧

تنبيه: النصارى كذبوا محمداً ﷺ ولم يتبعوه ، فهم بهذا مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضاً ، لأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به فلم يتبعوه ، نسأل الله العافية والسلامة.
وكذلك الأمر بالنسبة لليهود ، فهم لم يصدقوا بنبوته محمد ﷺ ولا بنبوته المسيح عيسى بن مريم ﷺ ، فهم بهذا كفار ليسوا مؤمنين ، ولو كانوا يؤمنون بموسى والأنبياء قبله.

١ سورة الأنبياء: ٢٥ .

٢ سورة الزخرف: ٤٥ .

٣ سورة النساء: ١٥٠ - ١٥١ .

٤ سورة البقرة: ٢٨٥ .

٥ سورة البقرة: ١٣٦ .

٦ سورة النساء: ١٥٢ .

٧ «أضواء البيان» ، تفسير سورة القمر: ٤١ .

ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفرا أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسول: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة ، فأما القرآن فجاء فيه ذكر ستة وعشرين نبيا ، وهم آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وداود وسليمان وأيوب وإلياس ويونس واليسع ولوط وإدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل ويوسف وموسى وهارون والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا.

وقد نظم أحد الشعراء أسماء خمسة وعشرين نبيا ورد ذكرهم في القرآن في نظمٍ لطيف فقال:

في ﴿تلك حجتنا﴾^١ منهم ثمانية من بعد عشر يبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم وبالمختار قد ختموا

وقد جاء في السُّنَّة ذكر نبي من الأنبياء لم يأت ذكره في القرآن ، وهو يوشع بن نون بن أفراهيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام^٢ ، من أنبياء بني إسرائيل ، وكان قائد بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة رضي الله

^١ يشير إلى الآيات (٨٣ - ٨٦) من سورة الأنعام حيث ورد فيهن أسماء ثمانية عشر رسولا.

^٢ رواه أحمد في «المسند» (٣٢٥/٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط البخاري.

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الشمس لم تُحبَس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.^١

وحبَسُ الشمس إنما هو ليستمر النهار فلا تغرب عليهم فيحل الظلام فلا يستطيعوا فتح البلد التي قصدوها وهي بيت المقدس ، وكانوا في يوم جمعة ، ولو دخل عليهم المغيب لدخل يوم السبت ، فلا يتمكنون معه من القتال ، لأن اليهود محرم عليهم فيه العمل ، فنظر النبي يوشع إلى الشمس ودعى ربه بأن لا تغيب حتى يتم الهجوم والنصر ، وبقدرة الله كان له ذلك ، فحبَس الله الشمس في مكانها حتى قضوا حاجتهم وفتحوا البلد ، والحمد لله.^٢

وأما من لم نعلم اسمه من الأنبياء فنؤمن به إجمالاً ، وقد أوماً القرآن إليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^٣.

ويدخل في هؤلاء الذين لم نعلم أسمائهم الأسباط ، وهم الأنبياء من ذرية يعقوب عليهم الصلاة والسلام ، وهو إسرائيل ، إذ السبط في بني إسرائيل يكافئ القبيلة في بني إسماعيل ، والشعوب في العجم ، وسُمُّوا الأسباط بذلك من السَّبَط وهو التابع ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وكَد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا أسباطاً ، وليس أحد من ذرية يعقوب نبياً إلا يوسف عليه السلام ، كما سيأتي بيانه.^٤

^١ انظر «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

^٢ وانظر القصة مفصلة في «صحيح البخاري» (٣١٢٤) ، و«مسلم» (١٧٤٧) ، وكذلك «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

^٣ سورة غافر: ٧٨ .

^٤ انظر «تفسير الطبري» ، سورة البقرة: ١٣٦ .

^٥ انظر «تفسير ابن كثير» ، سورة يوسف: ٨ .

وكان هؤلاء الأسباط متتابعون في ظهورهم حتى جاء المسيح عليه السلام.
فالحاصل أن عدد الأنبياء والرسل المذكورين في الكتاب والسنة سبعة وعشرين ، والحمد لله.
ورسل الله ثلاثمائة وخمسة عشر ، منهم الرسل الذين صرح القرآن والسنة بأسمائهم وقد تقدموا ،
والبقية لا نعلمهم ، والدليل على عددهم حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول
الله ، أنبيي كان آدم؟

قال: نعم ، معلّم مكلم.

قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

قال: عشرة قرون.

قالوا: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟

قال: ثلاثمائة وخمس عشرة ، جمًّا غفيرا.^١

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالرسول: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم ، كالأخبار الواردة في
القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والأخبار الصحيحة التي ذكرها أصحاب السّير وكتب التاريخ ،
والتي تتضمن قصصهم وخصائصهم ، وأما الأخبار المروية عن الرسل في كتب أهل الكتاب والتي
ليس لها ما يعضدها من الأخبار الصحيحة المذكورة في كتب المسلمين فهذه لا يلزم المسلم

^١ رواه الحاكم في «مستدرکه» (٢٦٢/٢) ، واللفظ له ، وقال الذهبي: على شرط مسلم ، وكذا رواه الطبراني في «الكبير»
(١١٨/٨-١١٩) ، وفيه: (ثلاثمائة وثلاثة عشر) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

تصديقها ولا تكذيبها ، إلا إن كانت منافية لما في كتب المسلمين الصحيحة فعندئذ يجب تكذيبها ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»^١ الآية. ^٢

والمقصود بما أنزل إليهم هما التوراة والإنجيل الأصليين التي أنزلها الله على موسى وعيسى ، وليست التوراة والإنجيل المحرفة التي بأيدي اليهود والنصارى الآن.

الخامس من مقتضيات الإيمان بالرسول: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^٣.

السادس مما يتضمنه الإيمان بالرسول: الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على وفق ما أمرهم الله به ، وأهم بينوه بيانا شافيا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله ، قال تعالى ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾^٤ ، ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾^٥ ، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾^٦ ، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾^٧.

^١ لعل هناك خطأ من النسخ ، فلفظ الآية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ الآية (١٣٦) من سورة البقرة. وانظر تعليق محققي صحيح البخاري على الحديث ، طبعة مؤسسة الرسالة العالمية.

^٢ رواه البخاري (٧٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٣ سورة النساء: ٦٥ .

^٤ سورة النحل: ٣٥ .

^٥ سورة النحل: ٨٢ .

^٦ سورة العنكبوت: ١٨ .

^٧ سورة التغابن: ١٢ .

السابع مما يتضمنه الإيمان بالرسول: الإيمان بما أئدهم الله به من آيات ، وتسمى أيضا براهين ودلائل ، وهي الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيديهم دلالة على نبوتهم ، ولثلا يبقى أمرهم مشكلا على الناس ، فإن الناس إذا رأوا رسلهم قد أُئدوا بأمر فوق قدرة البشر وطاقتهم ؛ علموا أنهم مرسلون من عند الله تعالى ، فاستيقنوا أمرهم وآمنوا بهم وثبتت قلوبهم على الدين.

ومن تلك الآيات عصا موسى التي ألقاها بين أيدي سحرة فرعون فإذا هي حية تسعى ، تلقف وتلتهم ما ألقوه من الحبال والعصي ، فآمنوا ، لأنهم علموا أن ما أتى به موسى من عند الله وليس سحرا ، وبعد إيمانهم بقيت العصا معه ، فلما سار بقومه تجاه البحر فرارا من فرعون ضرب بعصاه العصا البحر فانفلق فسار في طريق يابس مع قومه فنجاه الله ، وفي صحراء سيناء ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا على قدر أسباط بني إسرائيل ، فعصا موسى ليست إلا آية من عند الله ليعلم الناس أنه رسول من عند الله ، فيكون حجة على من لم يؤمن ، وتثبيتا لمن آمن به ﷺ .

ومن الآيات أيضا ما أئد الله به عيسى ﷺ ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ويمسح بيده على الأكمه - وهو الذي وُلد أعمى - والأبرص فيبرأ بإذن الله ، وكان يُحيي الموتى بإذن الله ، أفليس هذا دليل على أنه رسول من عند الله؟ بلى والله.

كما أئد الله نبيه محمدا ﷺ بآيات كثيرة ، كلها تدل على صدق نبوته وأنه رسول من عند الله حقا ، أشهرها القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ .

فانددتان في باب الإيمان بالآيات التي أرسل بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

^١ انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ، ص ٣١١ ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

الفائدة الأولى:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل كبريات الآيات على أيدي رسله من جنس ما برز فيه أهل العصر الذي بُعث فيه ذلك الرسول ، ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإقناع بأن ذلك الرسول مرسل من عند الله حقاً ، ففي عصر موسى عليه الصلاة والسلام اشتهر قومه بالسحر ، فكانت آية موسى من جنس ما اشتهروا فيه وزادت عليه ، بأن كانت حقيقة لا خيالاً.

وفي عصر عيسى عليه الصلاة والسلام كان علم الطب مترقياً إلى حد كبير ، فجاءت آيته من جنس ما برزوا فيه وزيادة ، بأن جعل الله على يده الشفاء من أمراض لا يستطيع قومه علاجها وهي العمى والبرص ، بل وإحياء الموتى، كلها بإذن الله تعالى.

وكذلك الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ ، فقد ترقى الناس في عصره في جانب الفصاحة ، فكتبت المعلقات الفصيحة ونُظمت القوافي البليغة ، فجاء القرآن معجزاً لهم أن يأتوا بمثله ، ثم أعجزهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطيعوا ذلك ولا بآية واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بمرت الأبطال وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فُبِعِثَ في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟^١ وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبُلغاء ونحارير^٢ الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سُور من مثله ، أو بسورة من مثله ؛ لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^٣ ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.

انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.^٤

الفائدة الثانية:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل معجزة القرآن خالدة ، أما معجزات النبي ﷺ الأخرى وكذلك معجزات الأنبياء قبله فقد انقرضت ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن

^١ يوم التناد هو يوم القيامة ، سُمِّيَ بذلك لأن الملائكة تنادي أهل الجنة بأعمالهم وأهل النار وأعمالهم ، وقيل لأن الناس ينادي بعضهم بعضا في ذلك اليوم إذا اشتد الهول والفرع.

^٢ نحارير جمع نحير ، وهو الحاذق الماهر العاقل المحرب. انظر «لسان العرب» ، مادة (نحر).

^٣ الظهير هو المعين. انظر «لسان العرب» ، مادة (ظهر).

^٤ «تفسير القرآن العظيم» ، سورة آل عمران ، الآية ٤٩ ، وللقرطبي كلام مثله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، خاتمة باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) ، وكذا ابن حجر في «فتح الباري» (٦٢٢/٨) ، شرح حديث: (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي).

عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.^١

قال النووي رحمه الله:

أَمَّا مَعَانِي الْحَدِيثِ فَاخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى أَقْوَالٍ ؛ أَحَدَهَا أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا كَانَ مِثْلَهُ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَأَمَّنَ بِهِ الْبَشَرُ ، وَأَمَّا مُعْجَزَتِي الْعَظِيمَةُ الظَّاهِرَةُ فَهِيَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِثْلَهُ ، فَلِهَذَا قَالَ: أَنَا أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا.

وَالثَّانِي مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي أُوتِيَهُ لَا يَنْطَرِقُ إِلَيْهِ تَخْيِيلٌ بِسِحْرِ وَشُبُهَةٍ ، بِخِلَافِ مُعْجَزَةِ غَيْرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُخَيَّلُ السَّاحِرُ بِشَيْءٍ مِمَّا يُقَارِبُ صُورَتَهَا ، كَمَا خَيَّلَتْ السَّحْرَةَ فِي صُورَةِ عَصَا مُوسَى ﷺ ، وَالْحَيَالِ قَدْ يَرُوجُ عَلَى بَعْضِ الْعَوَامِّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ وَالسَّحْرِ وَالتَّخْيِيلِ يَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ وَنَظَرٍ ، وَقَدْ يُحْطَى النَّاطِرُ فَيَعْتَقِدُهُمَا سَوَاءً.

وَالثَّلَاثُ مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ انْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِ أَغْصَارِهِمْ وَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ ، وَمُعْجَزَةُ نَبِيِّنَا ﷺ الْقُرْآنُ الْمُسْتَمَرُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَعَ خَرْقِ الْعَادَةِ فِي أُسْلُوبِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَإِخْبَارِهِ بِالْمُعْجَبَاتِ ، وَعَجْزِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ فِي جَمِيعِ الْأَغْصَارِ ، وَمَعَ إِعْتِنَائِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ فَلَمْ يَقْدِرُوا وَهُمْ أَفْصَحُ الْقُرُونِ ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ الْمَعْرُوفَةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ ﷺ : (فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا) عَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُ أَحْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِهَذَا فِي زَمَنٍ قَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ مَنْ اللَّهُ تَعَالَى وَفَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْبِلَادَ وَبَارَكَ فِيهِمْ ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ

^١ رواه مسلم (١٥٢).

وَاتَّسَعَ الْإِسْلَامُ فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَذِهِ الْعَايَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ وَسَائِرِ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى باختصار.

وقال شمس الدين الذهبي رحمه الله في شرح قوله (وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي): هذه هي المعجزة العظمى ، وهي القرآن ، فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضي بموته ، فقلَّ لذلك من يتبعه ، وكثُرَ أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية بعده ، فيؤمن بالله ورسوله كثيرٌ ممن يسمع القرآن على مر الأزمان ، ولهذا قال: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة. انتهى.^١

وقال ابن حجر في «الفتح» في شرح الجملة المتقدمة: أي أن معجزتي التي تحدت بها ؛ الوحي الذي أنزل علي ، وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره. انتهى مختصرا.

تفصيل في بيان إعجاز القرآن

القرآن الكريم مُعْجَزٌ في ذاته من تسعة وجوه^٢:

الأول: بيانه وفصاحته ، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم ، وفي زمان بلغوا فيه الذروة في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن نظم الشعر ، فظنوا في أول الأمر أنهم يستطيعون الإتيان بمثله

^١ «سير أعلام النبلاء» ، قسم السيرة النبوية ، (٣٥١/٢٧) ، باب جامع في دلائل النبوة ، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

^٢ قولي إنها تسعة ليس على سبيل التحديد ، ولكن بحسب ما يسر الله الوقوف عليه ، وربما كانت هناك وجوه أخرى ، فالله تعالى أعلم ، وانظر للاطلاع وجوه إعجاز القرآن الكريم العشرة كما ذكرها القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها.

فقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾^١ ، فنزل القرآن بتحديهم على ثلاثة مراحل ؛ الأولى أن يأتوا بمثله^٢ ، والثانية أن يأتوا بعشر سور مثله^٣ ، والثالثة أن يأتوا بسورة مثله^٤ ، فعجزوا مع شدة حرصهم على مغالبة القرآن وقوة فصاحتهم ، فقطع الله طمعهم إلى قيام الساعة في قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^٥.

وقال ابن تيمية رحمه الله:

والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول ، تُتلى آيات التحدي به ويتلى قوله ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ و ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله﴾ و ﴿بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ ، ويُتلى قوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ ، فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر^٦ وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقاً يُعجز الثَّقَلَيْنِ^٨ عن معارضته ، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

١ سورة الأنفال: ٣١ .

٢ سورة الطور: ٣٣ - ٣٤ .

٣ سورة هود: ١٣ .

٤ سورة البقرة: ٢٣ .

٥ سورة الإسراء: ٨٨ .

٦ وانظر أيضا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين

يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ (سورة يونس: ٣٧).

٧ أي في أول أمر نبوته.

٨ الثَّقَلَيْنِ هما الإنس والجن.

ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف ، والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال إنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد ، وما من كلام تكلم به الناس - وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى - إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه ، سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكم والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وُجد من ذلك شيء إلا وُجد ما يُشبهه ويُقاربه.

والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظه آية ، ونظمه آية ، وإخباره بالغيوب آية ، وأمره ونهي آية ، ووعدّه ووعدّه آية ، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.^١

فائدة - التوراة والإنجيل لا يُجزم بأنها معجزة في لفظها

لا يُجزم بأن التوراة والإنجيل مُعجزة من حيث اللفظ والنظم كالقرآن ، فهذا يرجع إلى اللغة التي أنزل بها وهي العبرانية ، وإنما هي مُعجزة لما تضمنته من المعاني ، كالإخبار عن الغيوب ، وما فيها من الهدى والنور ، وما فيها من الإخبار بنبوة محمد ﷺ .^٢

ثانياً: أنه ليس فيه عوج لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، قال الشنقيطي رحمه الله في تعليق له على قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾:

^١ كتاب «النبوات» ، ص ٥١٥ - ٥١٧ .

^٢ انظر كتاب «النبوات» (٥١٩).

أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان ، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات ، ومعانيه كلها في غاية الكمال ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام.^١

ثالثاً: حفظه من التحريف على مر العصور والدهور ، ووجه الإعجاز أنه لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حُفِظَ هذا الكتاب ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^٢.

رابعاً: حُسْنُ ما تضمنه القرآن من تشريعات وأحكام ، تصلح لجميع البشر ولجميع الأزمنة والأمكنة ، وتشمل جميع ما يصلح العباد في دنياهم وآخرتهم ، في العقيدة والشريعة والآداب والاقتصاد والسياسة وغيرها ، وجعله مستغنٍ عن غيره من القوانين والدساتير.

خامساً: صدقُ الأخبار التي تضمنها ، سواء التي مضت ، أو التي تحصل تَبَعاً مع مرور الزمن أثناء تنزُّل القرآن ، أو الآيات التي فيها ذكر بعض الأمور المستقبلية ، فأما الأخبار التي مضت فهي كالأخبار عن خلق السماوات والأرض ، وقصة آدم وإبليس ، ثم قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الكهف وذوي القرنين ، وغيرها ، جاءت كل هذه الأخبار على لسان نبي أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وتضمَّن القرآن كذلك ذكر بعض الأحكام الواردة في التوراة ، وبيان كتمان أخبار اليهود لها ، حتى تحداهم القرآن بقوله ﴿قل فاتوا بالتوراة إن كنتم صادقين﴾^٣.

^١ «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ١٨ .

^٢ سورة الحجر: ٩ .

^٣ سورة آل عمران: ٩٣ .

وأما الآيات التي نزلت تَبَعًا مع التنزيل فكالآيات التي نزلت لكشف أحوال المنافقين ، والآيات التي فيها إجابة على أسئلة ، كآيات التي تَصَدَّرُها قوله ﴿ويسألونك﴾ ونحوها ، وكذا المواقف التي كشفت عن صدق الله وعده لنبيِّه بالنصر في الحروب ، وغير ذلك.

وأما الآيات التي فيها أخبار ما سيأتي في المستقبل فوُجعت مطابقة لما أخبر فكُدخول المسجد الحرام ، وهي في آخر سورة الفتح.

وأيضاً قوله تعالى ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾^١ ، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن عمر لما نزلت هذه الآية قال: أيُّ جمع يُهزم؟

فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يَثِبُ في الدَّرْعِ ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وفي رواية لابن أبي حاتم: فَعَرَفْتُ تأويلها يومئذ.

وكذلك الآيات التي فيها تقرير عجز الناس عن أن يأتوا بأية مثل آيات القرآن ، فعجز الناس فعلا ، وكالآيات التي تقرر حفظ الله لكتابه ، كقوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، فوقع الأمر كما أخبر ، فكم من ملحدٍ حاول ثم نكص على عقبيه ، وكالآيات التي تقرر حصول العزة والكرامة والسيادة والظهور للأمة الإسلامية إن استقامت على أمر الله ، فوقع الأمر كما أخبر الله في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾^٢ ، ثم لما فشا فيهم الشرك والبدع ،

١ سورة القمر: ٤٥ .

٢ سورة النور: ٥٥ .

والبعد عن منهج السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ؛ صاروا في ذيل الأمم ، وتسلمت عليهم الأمم الأخرى ، واحتلوا بلادهم قرونا من الزمن^١.

ومن دلائل صدق القرآن ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فمراحل تكوين الإنسان في بطن أمه - مثلا - قد تحدث عنه القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يَهْتدِ علماء الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من هذا الزمان.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم بين أن حياة الإنسان تمر بأربعة مراحل ، فقال تعالى في مطلع سورة المؤمنون:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين* ثم إنكم بعد ذلك لميتون* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

فالمرحلة الأولى هي أصل الخلقة ، لما خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.

^١ تعمدت هنا ذكر جملة (واحتلوا بلادهم قرونا) بدل (واستعمروا بلادهم قرونا) ، والفضل في هذا الاختيار يعود للعلامة السلفي محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ، فقد انتقد كلمة (الاستعمار) ، فقال ما معناه إن مادة هذه الكلمة هي (العمارة) ، ومن مشتقاتها التعمير وال عمران ، كما قال الله تعالى ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ، والذي وقع من الإفرنج في تلك الحقبة الزمنية هو الخراب لا العمران ، فإنهم حَرَبُوا الأوطان والأديان والعقول والأفكار والمقومات ، وتركوا آثارا وبصمات سيئة بعد انسحابهم من البلاد التي احتلوا وهيمنوا عليها ، ومع الأسف فالمصطلح المستعمل بين المسلمين بعد انسحابهم وإلى الآن هو الاستعمار ، وهذا خطأ لفظي واضح.

انظر «آثار الإبراهيمي» (٣/٥٠٦ - ٥٠٧).

المرحلة الثانية هي مرحلة تكون الإنسان في بطن أمه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المراحل التدريجية لتكون الإنسان في بطن أمه ، وهي خمسة مراحل ؛ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم فوق العظام.

فقوله: (خلقنا النطفة علقة) أي دمًا أحمر.

وبعد أربعين يومًا تتحول العلقة إلى مضغة ، أي قطعة لحم قَدْر المضغة التي يمضغها الإنسان في فمه.

ثم تتحول المضغة اللينة وتتحول خلقتها إلى عظام.

ثم تُكسى العظام لحمًا ، ثم يُنشؤه الله خلقًا آخر بنفخ الروح فيه.

فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والشاهد من هذا السرد لمراحل خلق الإنسان أن علم الطب الجديد اكتشف هذه المراحل كلها ، ثم تفاجأ بأنه هذه المراحل المذكورة في القرآن منذ أربعة عشر قرنًا ، فاستدلوا من هذا على أن القرآن كلام الله ، لا يمكن أن يكون الذي أتى به بشر ، فسبحان من بهر بحكمته العقول.

وكذا الأمر بالنسبة لتكوين البحار والجبال وغيرها ، فقد جاء ذكر تكوينها الطبيعي في القرآن ، وبعد ظهور المكتشفات الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر به.

وقد أُلِّفت في مطابقة الاكتشافات العلمية لما جاء به القرآن مؤلفات كثيرة ، وأسلم بسبب هذا التطابق عددٌ ليس بالقليل من علماء الطبيعة ، ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

سادسًا: ومن دلائل إعجاز القرآن تنوع العلوم التي احتواها ، فعلاوة على أن القرآن الكريم قد قرر العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بصفات الله تعالى وأحقيته بالعبادة ، وهدم أساطير الخرافة والتعلق

بالمخلوقات ؛ فإنه لم يقتصر على هذا ، فقد اغترف منه علماء النحو والبلاغة واللغة الشيء الكثير ، بل هو المعيار الأساس لضبط علومهم .

فتنوع العلوم هذه كلها تدل على أن النبي ﷺ صادق فيما يُبلَّغُه عن ربه ، فإنه من المستقر المعلوم عند قومه أنه أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين سيأتي بكل هذه الأخبار القرآنية لولا أنه يُوحى إليه من ربه؟ قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبتلون﴾* بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بها إلا المبتلون﴾^١.

سابعاً: ومن وجوه إعجاز القرآن تأثيره البليغ في النفوس ، سواء كانت نفوساً مؤمنة أو كافرة ، وصدق الله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾^٢ ، وقوله ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾^٣.

وقد تأثر بالقرآن بعض صناديد الكفر من قريش ، ومن ذلك قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن ، فقد روى ابن جرير في «تفسيره»^٤ والحاكم في «مستدركه»^٥ واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا .

١ سورة العنكبوت: ٤٨ - ٤٩ .

٢ سورة الحشر: ٢١ .

٣ سورة الزمر: ٢٣ .

٤ تفسير سورة المدثر ، الآيات ١٨ - ٢٥ .

٥ (٥٠٧/٢) .

قال: لِمَ؟

قال: ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبّله.^١

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكرٌ له ، أو أنك كارءٌ له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزٍ ولا بقصيدةٍ مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يُشبهه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلأوة^٢ ، وأنه لمثمرٌ أعلاه ، مُغدِقٌ^٣ أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه لِيَحْطُمُ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر.

فلما فُكِّر قال: هذا سحر يؤثر ، يَأْثِرُه عن غيره^٤ ، فنزلت ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وحيدا﴾^٥.

وأخرج ابن إسحاق في السيرة^٦ والبيهقي في «الدلائل»^٧ واللفظ له عن الزهري قال: حَدَّثْتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأحنس بن شُرَيْق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في

^١ أي لتعرض نفسك لما عنده من مال ، يريدون أنه طمع بما عنده ، فلهذا ذهب إليه.

^٢ أي رونقا وحسنا ، وقد تفتح الطاء. انظر «النهاية».

^٣ الغدق هو الماء الكثير ، وفي التنزيل ﴿لأَسْقِينَهُمْ ماءً غدقا﴾ ، والمقصود بالمُغْدِق في الكلام هنا هو كثرة خيره. انظر «لسان العرب».

^٤ أي يرويه عن غيره.

^٥ سورة المدثر: ١١ .

^٦ كتاب «السيرة» ، ص (١٦٩) ، تحقيق محمد حميد الله.

^٧ باب جماع أبواب المبعث (٢/٢٠٦).

بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكُلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: (لا تعودوا ، فلو راكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا) ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقالوا: (لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود) ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرَّقوا ، فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال: يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها.
قال الأحنس: وأنا ، والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟
قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كَفَرَسِي رِهان ؛ قالوا: (منا نبي يأتيه الوحي من السماء!) ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأحنس بن شريق.
انتهى.

ولما سمع جُبَيْر بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ

حَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ^١ ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.^٢

ولما كان القرآن يتصف بهذا التأثير البليغ في النفوس ؛ تعاهد الكفار ألا يستمعوا للقرآن ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾^٣ ، وما ذاك إلا لتأثيره في نفوسهم ، وإحساسهم به في أعماقهم ، ولكنهم قوم يستكبرون عن سماع الحق.

وقد أثر القرآن في بعض النصارى فآمنوا به ، قال تعالى عنهم ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾^٤.
أما المؤمنون فتأثير القرآن فيهم واضح ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾^٥ ، والكلام في هذا يطول ، وهو موجود في مظانه ، ويكفي في هذا ما ذكره جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»^٦ أن جماعة ماتوا عند سماع آيات من كتاب الله ، وقد أفرد أسمائهم في مصنف.

ثامنا: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم كونه شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية (أي النفسية) ، فأما الأمراض الحسية فقد حذر القرآن من جملة من المطعومات والمشروبات والسلوكيات على سبيل

^١ سورة الطور: ٣٥ - ٣٧ .

^٢ رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣ ، ٤٠٢٣).

^٣ سورة فصلت: ٢٦ .

^٤ سورة المائدة: ٨٣ .

^٥ سورة الأنفال: ٢ .

^٦ باب: النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن.

الوقاية من الأمراض ، ومن ذلك تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وارتكاب الزنا واللواط ، وكذا إتيان النساء في فترة الحيض .

وأما إذا أصيب الإنسان بمرض فقد أرشد النبي ﷺ إلى التداوي بقراءة سورة الفاتحة ، كما أرشد القرآن إلى التداوي بالعسل ، ﴿فيه شفاء للناس﴾^١ .

وأما الأمراض النفسية فالقرآن هو أفضل الأدوية لها ، بل إن سبب هذه الأمراض هو البعد عن القرآن ، ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾^٢ ، ومن تلك الأمراض القلق والاكتئاب والسحر والأخلاق الرديئة من طمع وكبر والانجراف وراء الشهوات وغير ذلك ، وذلك أن هذه الأمراض تحصل نتيجة الخواء الروحي ، وليس للخواء الروحي دواء إلا الرجوع إلى الله تعالى ، وصدق الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^٣ ، ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾^٤ ، ﴿قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾^٥ ، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾^٦ .

وقد شفى الله بقراءة القرآن الألوفاً المؤلفة ممن أصيبوا بالأمراض العضوية والنفسية على مرّ العصور ، ولا يزال هذا يُشاهد ويُمارس ، بل قد صار الاستشفاء بالقرآن مُقرّراً في بعض العيادات النفسية .

١ سورة النحل: ٦٩ .

٢ سورة طه: ١٢٤ .

٣ سورة الرعد: ٢٨ .

٤ سورة الإسراء: ٨٢ .

٥ سورة يونس: ٥٧ .

٦ سورة فصلت: ٤٤ .

تاسعا: ومن وجوه إعجاز القرآن يُسرُّ حفظه عن ظهر قلب لمن أراد ذلك ، خلافا لغيره من الكتب ، فقد حُفِظ القرآن كاملا في صدور الملايين من الناس منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا ، ومِمَّن حفظه من هو من المكفوفين ، ومنهم من هو من الأعاجم الذين يتكلمون اللغة العربية إلا قليلا ، فسبحان من بهر بكتابه العقول ، وسيستمر حفظه في صدور الناس إلى نهاية الدنيا.

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لم - ولن - يحصل لغيره من الكتب إطلاقا.

فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسول

اعلم رحمك الله أنه كما أن الإيمان بالرسول لا يتحقق إلا بأمور ؛ فإن الإيمان بهم ينتقض بأمور:

الأول: تكذيبهم ، أي تكذيب أنهم رسل من عند الله وإن كان التكذيب متعلق برسول واحد ، لأن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والتكذيب بواحد منهم يقتضي التكذيب بالجميع ، وهذا الناقض حاصل في جميع الأمم من عهد نوح إلى قيام الساعة.

الثاني: تكذيب ما جاؤوا به ولو كان جزءا من الشريعة ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بما جاء به النبي ﷺ ، ولكنه لم يؤمن بأنه خاتم الأنبياء ؛ فهذا في الحقيقة لا يعتبر مؤمنا بالنبي ﷺ ، لأن الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بما جاء به وعدم تكذيبه في شيء منه ولو كان شيئا واحدا.¹

الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بأن محمد ﷺ مرسل من ربه ، ولكنه أبقى العمل بشريعته ، فإن هذا الرجل لا يُعد مؤمنا حتى ينقاد لشريعته ، فإن دليل الإيمان العمل ،

¹ يراجع للفائدة كتاب «المتنبون في الإسلام وخطرهم على الفكر والمجتمع» ، د. غالب بن علي عواحي ، الناشر: دار النصيحة - المدينة.

ولهذا فإن أبا طالب عم النبي ﷺ لا يُعتبر مسلماً مع كونه آمن بأن ابن أخيه رسول من عند الله حقاً ، وما ذاك إلا لأنه أبا الانقياد لشريعته تقليداً لقومه ولئلا يُعيره الناس بترك دين الآباء والأجداد.

الرابع: إيذاؤهم ، بسبهم أو الاستهزاء بهم أو تنقصهم أو التعدي عليهم في حياتهم ، وهذا الفعل كفر ، قال تعالى ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون* لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾^١ .
الخامس: الغلو فيهم ، أي تعظيمهم فوق الحد الشرعي ، بصرف شيء من العبادات لهم ، كدعائهم والسجود لهم والطواف بقبورهم والذبح لهم ، أو وصفهم بشيء من صفات الرب عز وجل ، كادعاء أنهم يعلمون الغيب ، أو يتصرفون في الكون ، ونحو ذلك ، فهذه كله شرك في العبادة وفي أسماء الله وصفاته.

تنبيه

الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الانحراف ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا بأنبياء ، وهو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، بدءاً من أمة نوح إلى أمة محمد ﷺ ، فقد كان منشؤ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تدزّن ألهتكم ولا تدزّن ودّاً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾^٢ قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما

^١ سورة التوبة: ٦٥ - ٦٦ .

^٢ سورة نوح: ٢٣ .

هلكوا^١ أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً^٢ ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبَد ، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم^٣ عُبدت^٤ .
 وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يغيث ويعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوِّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسَقون المطر ، فعبدوهم^٥ .
 وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء^٦ قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم^٧ .
 وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد^٨ ، أما وُد فكانت

^١ أي ماتوا.

^٢ أي اصنعوا أنصابا ، وهي تماثيل تصنع على هيفتهم ثم تنصب في المجالس ليراهها الناس فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

^٣ أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية». قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

^٤ رواه البخاري (٤٩٢٠).

^٥ «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

^٦ أي وُدًا وسواعا ويغيث ويعوق ونسرا.

^٧ «إغاثة اللهفان» ، (١/١٨٤) ، تحقيق محمد حامد الفقي .

^٨ أي بعد ذلك الزمان ، كما سيأتي في كلامه.

لكلب بدومة الجندل^١ ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحَمير لآل ذي الكلاع^٢. وقال قتادة: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك^٣. وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور^٤. وقد نهى الله أهل الكتاب من قبلنا عن الغلو عموماً ، في الأنبياء وفي سائر أمور الدين ، فلم يستجيبوا فضلاً وأضلاً ، قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾^٥. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي لا تُجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تُطروا^٦ من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً. انتهى كلامه. وقال رحمه الله في تفسير آية النساء ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾:

^١ موضع في شمال جزيرة العرب.

^٢ رواه البخاري (٤٩٢٠).

^٣ «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

^٤ «زاد المعاد» (٤٥٨/٣) ، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

^٥ سورة المائدة: ٧٧ .

^٦ الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾^١ .
ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله.^٢ انتهى .

^١ سورة التوبة: ٣١ .

^٢ رواه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له ، وأحمد (٥٥/١) ، والدارمي (٢٧٨٧) .

فصل في بيان ثمرات الإيمان بالرسول^١

الإيمان بالرسول له ثمرات جلييلة ، منها:

الأولى: العلم برحمه الله تعالى وعنايته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسول ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويؤينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستطيع معرفة ذلك بنفسه .

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .

الثالثة: محبة الرسول عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده ، وجاهدوا في سبيل ذلك .

الرابعة: الهداية إلى الدين الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالعمل بما أمرت به الرسول عليهم الصلاة والسلام من الشرائع المنزلة .

الخامسة: الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من عبادات ، وسؤالهم عما أشكل من أمور الدين في حياتهم ، والرجوع إلى ورثتهم - وهم العلماء - بعد مماتهم ، كما قال تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^٢ ، وقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾^٣ .

^١ هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

^٢ سورة الأنعام: ٩٠ .

^٣ سورة النساء: ٨٠ .

فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسول^١

وقد كذب المعاندون رُسُلهم ، زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾* فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً ﴿٢﴾ ، فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم ، لأنه مُرسَلٌ إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكًا رسولاً ، ليكون مثلهم.

^١ هذا الفصل منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

^٢ سورة الإسراء: ٩٤ - ٩٥ .